

دار السلطان

(قصر آخر دايات الجزائر)

صليحة جدي

المركز الوطني للبحث في علم الآثار

من بين المنتجات الأكثر أهمية التي خلفها العهد العثماني في الجزائر ، الهندسة المدنية المتبعة في تخطيط المساكن والقصور، فقد تميزت مساكن مدينة الجزائر بتشابهها في التخطيط واختلافها في الحجم والتفاصيل تبعا لاختلاف ساكنيها من حيث الثروة والمكانة الاجتماعية، كما تتميز بجمالها وفخامتها معماريا وفنيا، وكلها تضم المرافق التي يحتاج إليها ساكنيها،

كما تتميز هذه المساكن بثروة من الزخارف المعمارية والفنية، اتبع فيها المعماري توفير الشروط الضرورية للحياة كالتهووية الطبيعية، بالاعتماد على التناسب في الغرف والأروقة المحاطة بالصحن فكانت بذلك نموذجا متكاملا جمع بين الراحة والجمال، والمسكن في العهد العثماني لا يحتوي على زخرفة الواجهة ماعدا في المدخل¹ ، وهو يظهر من الخارج ككتلة كبيرة مبيضة بالجير، تنفذ من جدرانها فتحات نادرة بشبابيك أو قضبان. لا شيء يوحي بالتخمين عن الترتيب الداخلي أو احتمال وجود صحن داخلي للتهووية و الضوء²، ويمكن القول أن المدخل هو العنصر الجذاب الوحيد للمسكن من الخارج وغالبا ما يوجد مدخل واحد في المسكن الواحد³. و بقدر ما يكون المظهر الخارجي للمساكن بسيطا، فإن تخطيطها الداخلي يميز المسكن العادي والمترف على السواء مهما كانت اختلافات الأبعاد والزخرفة، فأغلب المساكن الجزائرية في العهد العثماني تضم الطابق الأرضي وطابقين علويين⁴. وعموما يتكون المسكن الجزائري من السقيفة، وهي أولى عناصر المسكن التي تصادفنا بعد تجاوز المدخل مباشرة، ثم صحن داخلي مكشوف، مبلط بالرخام تتوسطه نافورة وهو يحمل الاسم المحلي المعروف بـ "وسط الدار"، أو باسيو (patio)، تحيط به أروقة تنتظم حولها قاعات مستطيلة الشكل، وهذه الأروقة ذات أعمدة تحمل عقودا. ويتكرر نفس الترتيب للطابق الأسفل في الطابق العلوي ويطلق محليا على القاعات التي تنتظم حول الصحن في الطابق الأسفل إسم "البيوت"، وعلى قاعات الطابق الأعلى اسم "الغرف". وينشأ عن هذا التوزيع شرفة تدعى "الدربوز أو الدرابزين، تجزأ من عمود لآخر على طول رواق الطابق العلوي وهي مصنوعة من الخشب.

¹ Marçais, G ; L'art en Algérie, Imprimerie algérienne, Alger, 1906, p125. 1906, p125 .

² Kaddache, M ; "La casbah sous les turcs", in documents algériens, Alger, 1952, p214.

³ Feydeau, Ernest ; Alger étude, édition Bouchene, Paris, 2003, p. 35.

⁴ Marçais ,G ; Manuel d'Art musulman, Paris 1927, p. 810.

يعتبر نظام الصحن مصدرا داخليا للنور والتهوية، بالإضافة إلى عامل الانتماء الداخلي للأسرة الجزائرية داخل المسكن⁵، حيث تقوم الحياة العائلية داخل الصحن باعتباره مكانا للاحتفال بالمناسبات، كما تقضي فيه النساء أوقات فراغهن في نسج الصوف والتطريز. فقد استوعب المعماري الجزائري ما استجد في العمارة التي حلت ببلاده بمجيء العثمانيين، فجمع في تصميم المسكن بين أسس البناء الوافدة وبين العناصر المحلية دون المساس بأصالة المسكن فنتج عن ذلك ما يمكن تسميته بالمسكن الجزائري الأصيل.

ويعد قصر الداوي بقلعة الجزائر⁶ من أهم وأجمل المنشآت التي تعود إلى العهد العثماني، لما احتواه من أقسام متباينة سواء من الناحية الإنشائية أو الزخرفية ويعتبر أهم المعالم التاريخية لما ارتبط به من أحداث سياسية وعسكرية حيث كان له تأثيره على الأوضاع الداخلية وعلى العلاقات السياسية الخارجية خلال تلك الفترة. كما يتميز عن باقي قصور المدينة بكونه أنشئ داخل قلعة محصنة بأسوار وبطاريات، والسؤال هنا هل انفردت قلعة الجزائر بمثل هذه المساكن، أم اتخذ الحكام مساكنهم داخل القلاع قبل العهد العثماني؟.

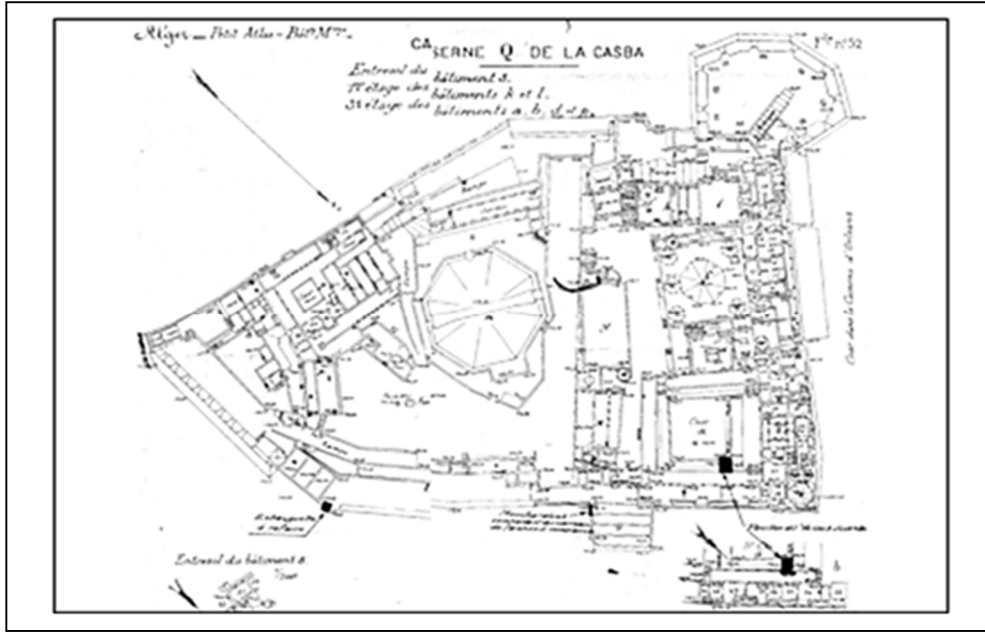
ولعل قصور قلعة بني حماد خير مثال على هذا التنظيم الداخلي للقلاع، فقد خلف التطور العمراني لقلعة بني حماد قصورا هامة و بارزة من حيث تخطيطها أو من حيث حجمها أو وظائفها، فهي تحتضن في داخلها القصر الملكي بالإضافة إلى قصور أخرى للسلطة السياسية كقصر المنار و قصر الكوكب و قصر السلام ، وقد بنيت هذه المقرات في هذا المكان لأسباب أمنية، كما تحتضن الجامع الكبير بمئذنته التي ترتفع 25 م والتي استخدمت على الأرجح كمركز للحراسة⁷.

كما هو الحال بالنسبة لقلعة المشور بتلمسان التي تعود لعهد الملوك الزيانيين، و هي في الواقع مركب معماري في شكل وحدة عمرانية داخل المدينة يشمل القصر الملكي والمسجد. فهذه القلاع و غيرها تركت منشآت وقصور بالغة الأهمية مازالت تتحدى الزمن وبقيت قائمة بعد زوال الأغراض و الوظائف التي أنشئت من أجلها وأعطتها في الأصل طابعها.

⁵ محمد الطيب عقاب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، (دراسة أثرية معمارية، مقارنة، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1985، ص.

⁶ رغم وجود القلعة في مكان استراتيجي إلا أنها لم تلعب الدور الرسمي ووظيفتها السياسية والإدارية إلا ابتداء من سنة 1817 م وهي السنة التي انتقل فيها الداوي علي خوجة إليها ونقل مقر الحكم من الجنيونة بأسفل القصبة واستقر بها. أنظر: صليحة جدي، مساكن قلعة الجزائر، دراسة معمارية فنية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار العثمانية، 2010/2011، ص35.

⁷ عبد الكريم عزوق، تأثير مئذنة قلعة بني حماد على بعض المآذن في المغرب والأندلس، مجلة التاريخ، 19، ص35.



مخطط رقم 1: مخطط قلعة الجزائر لسنة 1937 (السلم : 1/ 200) (عن مصلحة الأرشيف
الوكالة الوطنية للأثار سابقا)

موقع قصر الداوي:

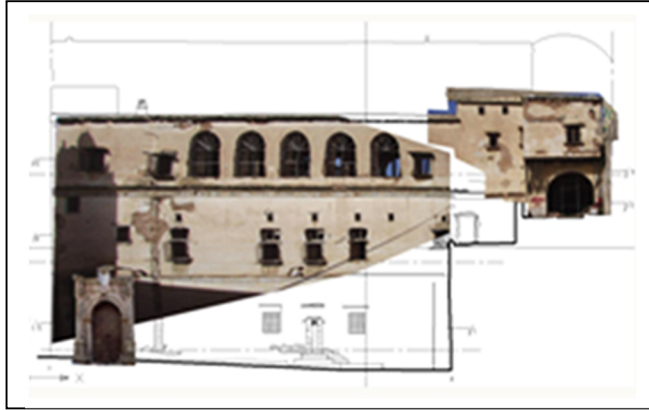
يحتل قصر الداوي الزاوية الشمالية الشرقية لقلعة الجزائر و يمثل الجزء الأكبر والأهم فيها من حيث التكوين المعماري أو من حيث المساحة التي تبلغ 2118م² ، كانت تناقش فيه كل المسائل السياسية و الإدارية والمالية للدولة وكانت أموال الدولة مخزونة بالجزء الجنوبي الغربي من الصحن المكشوف الذي يتوسطه. وقد شيد القصر عبر عدة مراحل حيث تعرض لعدة تغييرات خلال مراحل بناءه، وحسب الكتابة الموجودة في أعلى المدخل الرئيسي يعود تاريخ بنائه إلى منتصف القرن السادس عشر ميلادي. من أهم أقسامه نجد الغرف الخاصة بالداوي، جناح الحريم الذي يعتبر قصرا بذاته، قاعة الاجتماعات أو الديوان و خزانة الدولة، بالإضافة إلى المرافق المعيشية كالمطابخ والحمام.

الوصف المعماري:

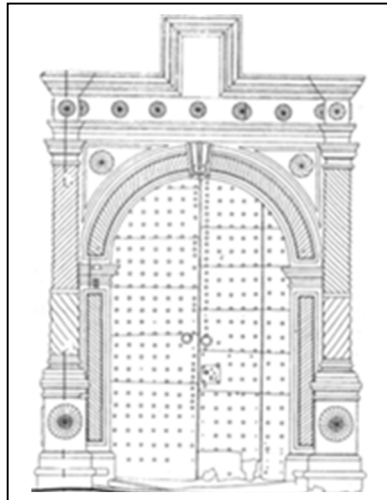
امتازت قصور مدينة الجزائر التي تعود للفترة العثمانية بالطابع التربيعي و التكعيبي⁸ وقصر الداوي بالقلعة لا يخرج عن هذا النظام، يبدو المبنى من الخارج مكعب الشكل، أما فيما يخص الواجهات فيظهر أنها كانت أكثر بهجة من واجهات قصور المدينة التي امتازت بالبساطة أي لا توهي عن مظاهر الفخامة، و لكن تبدو فيها زخرفة محتشمة من المربعات الخزفية كما فتحت في جدرانها عدة نوافذ مسيجة لأن الوضع هنا يختلف، فالمسكن يقع داخل قلعة محصنة فتظهر واجهاته أكثر بهجة.

⁸ عقاب، م، ط، نفس المرجع، ص 51.

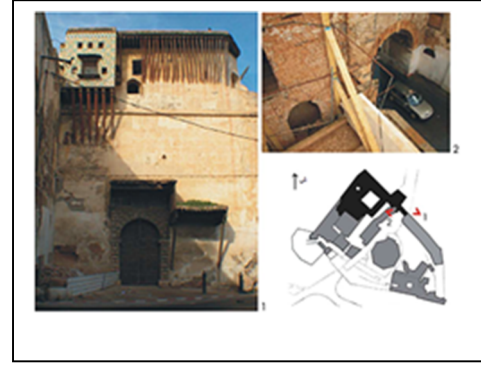
تعتبر الواجهة الجنوبية الشرقية (صورة رقم 1) أجمل الواجهات لاحتوائها على المدخل الرئيسي، تبدو وكأنها تحتوي على ثلاث طوابق يفصل الطابق الأرضي عن الطابق الأول طنف بارز عن الحائط، أما الطابق الأول فيفصله عن الطابق الثاني شريط من المربعات الخزفية ويعلوها طنف من القرميد الأخضر اللون، وما يلفت الانتباه في هذه الواجهة هو المدخل المصنوع من الرخام ذو العقد النصف دائري، والقائم على أعمدة حلزونية الشكل، بابه مصنوع من الخشب ومزود بمسامير من المعدن. يعلو المدخل فتحتان مسيجتان، وعلى يمينه توجد خمسة نوافذ مسيجة بقضبان حديدية مزخرفة، تعلو كل نافذة فتحة صغيرة. أما الطابق الثاني فنجد به نافذتان مسيجتان بقضبان حديدية من الجهة اليسرى، أما باقي الجدار فهو خالي من الزخارف به خمسة نوافذ كبيرة مستحدثة فتحت أثناء الاحتلال الفرنسي (شكل رقم 1). أما الواجهة الشمالية الشرقية فهي بسيطة تخترقها نوافذ مع بروز الإيوان، كما يعلو جدارها، شريط من المربعات الخزفية ذات اللون الأبيض و الأخضر، أما الواجهة الجنوبية الغربية فهي ملاصقة لمسجد الداوي، أما بالنسبة للواجهة الشمالية الغربية فتطل على الثكنة العسكرية وهي عبارة عن واجهة دفاعية تحتوي على فتحات دفاعية. يتضمن قصر الداوي مدخلان، الأول (لوحة رقم 1) يؤدي إلى السقيفة الرئيسية للقلعة وقصر الداوي والثاني يؤدي عن طريق سقيفة مستطيلة الشكل إلى الصحن المكشوف.



صورة رقم 1: الواجهة الجنوبية الشرقية والرئيسية لقصر الداوي



شكل رقم 1 : مدخل قصر الداوي



لوحة 1: منظر عام للسقيفة والمدخل الرئيسي لوحة رقم 2: القاعة الرئيسية للسقيفة وموقعها ضمن المخطط



صورة 2: الجناح الشمالي الغربي (منظر عام للديوان والنافورة)

السقيفة:

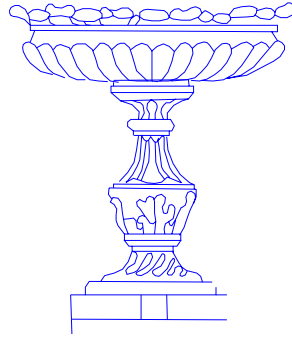
أما السقيفة (لوحة رقم 2) فقد وصفت من طرف كل من ميرل⁹ Merle ودوني¹⁰ Denniée وآخرون... ، غير أن تلك التقارير أهملت الجانب المعماري حيث نجد أن الجدران مكسية بقطع من الزليج مختلفة الأشكال والألوان ومن الزخارف التي بقيت حتى الآن الرسوم الموجودة على الجوانب الأربعة للقاعة الرئيسية والقبو المهدي الشكل الذي يغطي الجزء الأمامي من السقيفة والمتمثلة في زهريات تحتوي على باقات من الورد، استعملت فيها ألوان مائية (لوحة 2) . يوجد جنوب القاعة المقبة دهليز ، يتم الدخول إليه من السقيفة عبر سلم تعلوه ثمانية أقبية متقاطعة، حيث يشكل قاعة طويلة، فتحت بجهته الشمالية الشرقية (أي جهة الأسوار) فتحات للرمي.

⁹ Merle, J.T ; Anecdote historique et politique pour servir à l'histoire de la conquête d'Alger, paris, 1841, p.240.

¹⁰ Denniée, B ; précis historique et administratif de la campagne d'Afrique, paris, 1830, p.45.

الصحن

أما بالنسبة للصحن المكشوف الذي يتوسط القصر، فتحيط به أربعة أجنحة واجهاتها مزينة بأشرطة من المربعات الخزفية، توجد به نافورة من الرخام (شكل 2) و يتوسطه جب أو صهريج كبير للمياه يعلوه قباين مهديي الشكل، كان يزود القصر بالمياه حيث تجمع فيه مياه الأمطار النازلة من السطح و تصل إليه عبر قنوات من الفخار تقدر مساحته بحوالي 32,76 م² وارتفاعه 4,60م وقد فتحت به فتحتين تسمح بالدخول إليه لتنظيفه وأيضا أشغال الصيانة اللازمة ، تقدر مقاسات كل فتحة (60سم x 60 سم)¹¹.



شكل2: النافورة التي تتوسط الصحن

يصف هذا الصحن ميرل¹² بقوله "يمكن أن نعتبر هذه الساحة أهم جزء بقصر الداوي واسعة وجميلة جدا مغطاة بقطع من الرخام ومحاطة بأروقة مغطاة بصفوف من الأقواس التقليدية ومدعمة بأعمدة من الرخام الأبيض، كما نجد نافورة من الرخام على شكل كأس يرتفع منها قائم رقيق ينسكب منه الماء..".¹³ (صورة 1). كما تطرق دوني¹⁴ لقصر الداوي حيث يذكر أن من أهمية القصر التاريخية أن كل المسائل السياسية والإدارية والمالية للدولة كانت تناقش بطابقه الأرضي وأن أموال الدولة كانت مخزونة بالجزء الجنوبي الغربي من ساحة هذا القصر.

أما عن الرسومات التي أنجزت للصحن فنجد ايكونوغرافيا لليسور وويلد¹⁵ يظهر فيها الصحن والجناح الشمالي الشرقي للقصر مع المقصورة في الطابق الثالث وقد أخطأ في عدد الأقواس الموجودة بالرواق الشمالي الشرقي حيث نجد 7 أقواس بينما الموجودة فعلا فهي ستة أقواس . بالإضافة لرسم إيسكر¹⁶ حيث تظهر فيه ساحة القصر والمقصورة العلوية الخاصة بالداوي كما تظهر النافورة بالجهة الشمالية الغربية، وتظهر الأفاريز والدرابزين والأعمدة والتيجان كما تظهر الواجهة الأمامية لجناح الحريم.

¹¹ صليحة جدي، مساكن قلعة الجزائر، دراسة معمارية فنية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار العثمانية، 2010، ص 64.

¹² كان ميرل الأمين الخاص للجنرال دوبرومون قائد الحملة الفرنسية، وكان من الأوائل الذين دخلوا إلى القلعة وقصر الداوي

¹³ Merle, 1841, P 215.

¹⁴ Denniée, B, 1830. p46

¹⁵ Lessor et Wild ; Voyage pittoresque dans la régence d'Alger, Charles Motte, Paris, 1835.

¹⁶ Esquer, G ; Iconographie historique de l'Algérie, archéologie et histoire, collection du Centenaire de l'Algérie 1830-1930, vol. II, Librairie Plon, Paris, 1929.

أما الغرف فقد اتبعت في تخطيطها شكلا مستطيلا، فهي تشبه غرف مساكن القصبة التي تتميز باستطالتها وقد ارتبط تخطيط الغرف بالجانب الوظيفي الهام والدور الخاص الذي تؤديه، وهي في مجملها تفتح على " الصحن " بنوافذ وأبواب ذات مصراعين أو مصراع واحد تفتح نحو الخارج، وغرف مسكن الداى اتبعت نفس التخطيط.

أما الأروقة فتجمع بين الدور الوظيفي في البناء والدور الجمالي الزخرفي، نجدها محاطة بالصحن، يتلاءم دورها مع تصميم المسكن ذي طوابق بحيث يكون رواق الطابق الأرضي دعما لرواق الطابق الأعلى بحيث ترتكز أعمدة هذا الأخير مباشرة على أعمدة الطابق الأرضي كما أن توزيعها المنسجم حول الصحن مع تناسق أعمدتها التي تساهم في تماسك الدرابزين الخشبية في الطوابق العلوية ، يساهم في توازن المبنى كما يحميه من التصدعات فضلا عن كونها تلعب دور المعدل لحرارة الغرف بكسر التيارات الهوائية وكسر شدة الضوء على الأبواب والنوافذ¹⁷.

الخزينة:

وهي خزينة المال ويسمى الشخص الذي يشرف عليها بالخرناجي وهذا المنصب مهم جدا ويمكن أن يرتقي منه إلى منصب الداى كان يعلو باب الخزينة كتابة محفوظة حاليا في المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية، هذا نصها: "نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين- يا مفتاح الأبواب لنا خير باب"¹⁸، كتب هذا النص على قطعة من الرخام الجيد ونظرا لأهميتها، نقلت هذه الكتابة سنة 1817م عندما فر الداى علي خوجة من قصر الجينية إلى القلعة¹⁹. وموقع الخزينة بالقلعة اختاره الداى علي خوجة، عملا بوصية مستشاره وخليفته حسين في شهر ديسمبر من سنة 1817م²⁰. وبذلك استقرت الخزينة في مكان حصين هو عبارة عن أقبية ودهاليز مقوسة ويؤدي إلى هذه الدهاليز باب في نهاية الرواق منخفض في وضع منحرف بالنسبة للباب الرئيسي للقصر.

إن الإشراف والتصرف على الخزينة من طرف الداى و الخرناجي، فإشراف الداى معنوي يتمثل في الحرص على ضمان المصادر المالية التي تزود الخزينة ومراقبة النشاط المالي كدفع أجور الجند أو إقرار تحديد أسعار المنتوجات ، أما الخرناجي فهو في الواقع صاحب الخزينة وحارسها المكلف

¹⁷ Golvin, L, Palais et demeures d'Alger à la période Ottomane, Office des publications Universitaires, France 1988.

¹⁸ Klein, H, «Le trésor d'Alger en 1791 un mémoire de M.Guery » Feuilles d'Eldjazeir, T VI, 1913, p53.

¹⁹ - عندما أحس الداى علي خوجة بالخطر الذي كان يحيط به قرر الانتقال إلى القلعة بعد أن أتم تحصينها وأخذ معه أموال الدولة والكتابة التي كانت تعلو باب الخزينة، حيث استطاع أن يفلت بجلده وبقية هناك فترة وجيزة إلى أن تم نقلها إلى المتحف الوطني للآثار القديمة وعلى ما يبدو أن هذا النوع من الكتابات كان يكتب فوق أي خزينة، حيث نشر كولان Colin في مجمعه حول الكتابات، كتابة مشابهة ووضعت فوق باب الخزينة العامة.

Colin, G, Corpus des inscriptions arabes et turques d'Algérie. T. 1, Département d'Alger, Ernest Leroux, Paris, 1901, N° 76, pp116-117.

²⁰ Merle, J.T, La prise d'Alger racontée par un témoin préface et notes par M. H. d'Almeras, H.Jonquière, Paris, 1930, p

بإيداع مصادر دخل الدولة في شكل نقود ومقتنيات ثمينة وقد جرت العادة أن يكون تركيا ، يباشر الخزناجي مهامه المالية بحضور الداي وأعضاء الديوان، فيتسلم الموارد ليودعها في الخزانة أو يسحب المبالغ المستحقة لسد نفقات الدولة²¹. ويساعد الخزناجي في هذا العمل بعض الكتاب كالمكتباي²² ، أما بقية مساعدي الخزناجي فيأتي في طليعتهم أمين السكة الذي يتكلف برعاية ومراقبة ضرب النقود المختلفة وتقدير قيمة المجوهرات بعد وزنها²³

قاعات الديوان:

تحتل قاعات الديوان الجزء الغربي من الطابق الأرضي وتتكون من قاعة الاجتماعات والإستقبال (صورة 1) وهي عبارة عن رواق مضاعف من الأعمدة الرخامية، مضلعة الشكل وأخرى حلزونية الشكل، أما القاعات الخاصة فهي عبارة عن أربعة قاعات مقببة، ثلاثة منها تتصل ببعضها بآبواب داخلية والقاعات الأربعة عمودية على قاعة الاجتماعات.

غرف الداي:

تقع غرف الداي بالطابق الثاني في الجناح الشمالي الشرقي للقصر ، تتكون من سبعة قاعات يحدها من الجهة الجنوبية الرواق، الذي يطل على الصحن، يرتكز سقفه على أربعة أعمدة من الرخام تربط بينها درابزين خشبية، كسيت القاعات بقطع من المربعات الخزفية ويتم الدخول إليها عبر باب من الرخام. أما الكشك الخشبي فنجد به آخر الرواق من الجهة الغربية بين العمود الرابع وجدار الإرتكاز، كان الداي يجلس فيه في أوقات فراغه لشرب القهوة والاستراحة، وهو بارز نحو الصحن، فتحت به خمسة نوافذ، ثلاثة منها مقابلة للصحن واثنين على الجانبين (لوحة 4).

ويصف شولي (Chollier)²⁴ هذا الكشك بقوله "... بنهاية ساحة ذات رواق مزدوج من الأقواس المترابطة، وعلى الطابق الثاني نجد جناح "حادثة المروحة"²⁵ يظهر من الأسفل كأنه مسكن عريض يبرز نحو الساحة، فتحت به خمس نوافذ ثلاث بالجهة المقابلة للساحة واثنين بجهتيه الآخرين. .."

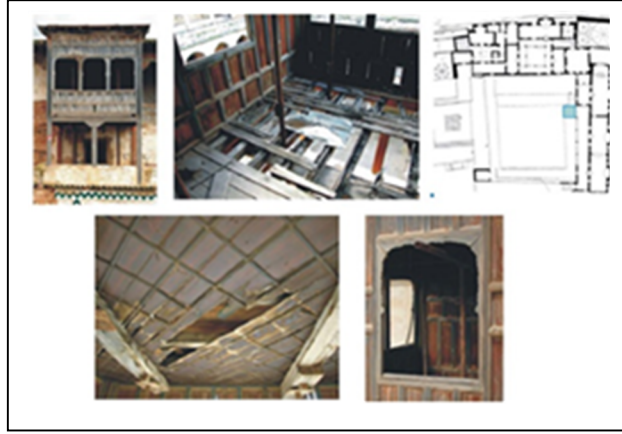
²¹ Shaw, T, Histoire de la monnaie 1252-1894, traduit de l'anglais par M. Rafflovich, Guillaumin et Cie, Paris, 1896, p167.

²² وهو كاتب الدولة الأول وهو من أهم مساعدي الخزناجي ويلقب أيضا بأفندي ، بيده سجل محاسبات الدولة الرئيسي المشتمل على ماتحتويه سجلات باقي الكتاب من مبالغ مالية وقوانين عسكرية واسماء ورتب وأجور الفرق الإنكشارية . حمدان خوجة ، المرأة، ص 104.

²³ -Devaulx, A, Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, 1852, p20.

²⁴ Chollier, Alger et sa région, 1928, p85.

²⁵ - **حادثة المروحة** كانت الذريعة أو بالأحرى السبب الغير المباشر لإعلان الحرب على الجزائر، جرت الحادثة في قصر الداي عندما جاء القنصل الفرنسي إلى القصر فأثار الداي مسألة تحصين فرنسا غير القانوني لمركز **القاله** و عدم تلقي الداي الرد الفرنسي على رسالته الخاصة بدفع الديون ، فرد القنصل على الداي بطريقة غير لائقة فغضب الداي وأمره بالخروج ملوحا بالمروحة التي كانت في يده فانسحب القنصل مهددا بأنه سيبذل حكومته بما أسماه إهانة شرف الأمة الفرنسية ، فبعث شارل العاشر بجيشه بحجة استرجاع مكانة وشرف فرنسا، وهذه الذريعة كانت السبب في الحصار على الجزائر سنة 1828 لمدة 6 أشهر وبعدها الاحتلال ودخول السواحل الجزائرية.



لوحة 3 : الكشك (الطابق الثالث)

جناح الحريم :

يعتبر جناح الحريم بمثابة قصرا صغيرا مستقل عن مسكن الداوي وهو شبيه بالدويرة المتصلة بالقصور في العهد العثماني، يطل من جهته الشرقية على الصحن الرئيسي لمسكن الداوي، يتكون جناح الحريم من ثلاثة طوابق شيدت على قاعات الديوان وينقسم إلى قسمين لكل منهما صحن خاص.

قاعة الموسيقى:

تتمركز هذه القاعة في الطابق الثاني من القصر، حيث تحتل الزاوية الشمالية الشرقية، وهي متصلة بجناح الحريم و بغرف الداوي وترتفع عنها بحوالي متر واحد تتكون من قاعة كبيرة مسقفة بقبة ذات قاعدة مثمثة وقبتين صغيرتين جانبيتين، فتحت بالقبة الكبيرة أربعة نوافذ مستطيلة الشكل وهي مفتوحة على ارتفاع حوالي 50سم ابتداء من قاعدة القبة. حسب الدراسات التاريخية يعتبر هذا الجزء أقدم جزء ويمكن تأريخه بالنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، إذ تمثل اللبنة الأولى أين تبدأ أسوار مدينة الجزائر²⁶

المرافق المعيشية :

إن ما يميز قصور مدينة الجزائر عامة وقصر الداوي خاصة، احتوائها على مرافق ذات صلة وثيقة بالحياة المعيشية للسكان دون اللجوء إليها خارج القصر، وهذا إمعانا وترسيخا لنموذج المجتمع المقتصر على الانتماء الداخلي، رغم وجود مرافق مكمل في المدينة كالحمامات والعيون وغيرها من المرافق الضرورية للحياة.

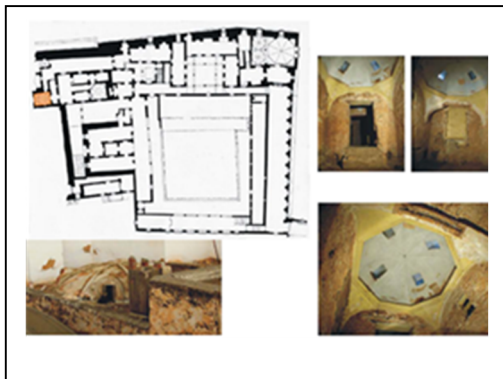
تعتبر هذه المرافق مكمل للقصر حيث تشغل جانبا من الجوانب بشكل يجعلها متجاورة أو مبنية فوق بعضها البعض وفق مستويات القصر للسماح بتصريف المياه المستعملة في القناة الرئيسية. و يعد المطبخ أحد

²⁶Andrzej, M ; Descriptif Architecturale, Projet de la mise en valeur de l'ensemble historique de la citadelle Casbah d'Alger ». P.K.Z, Alger Mai 1985. 1985, PP 8,9

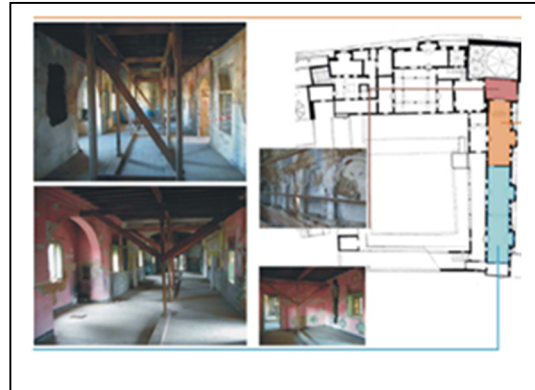
المرافق المعيشية الهامة في قصور مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، يتميز من حيث عمارته باحتوائه على مدخنة تبدو على سطح القصر، تشغل جل عرض الغرفة ومواقد دائرية مبنية بالآجر ومزودة بسياج²⁷، بالإضافة إلى ملحقة بها فرن للطهي ويتم تصريف الدخان عن طريق فتحة بسيطة أو عن طريق مدخنة مكونة من قنوات مصنوعة من الطين المشوى مدمجة داخل الحائط. أما مطابخ قصر الداوي فيتميز باتساعه إذ تبلغ مساحته 130 م²، يحتل الجناح الجنوبي الغربي للقصر في الطابق الأول وهو ملاصق لمسجد الداوي جنوبا والحمام غربا، ألحقت به مخازن لحفظ اللحوم والخضر ومواد أخرى ضرورية لطهي الطعام و الحلويات وكذا إعداد القهوة والشاي، ونظرا لكبر المطبخ قسم إلى ثلاثة أقسام حسب الغرض من إنشاءها، فمنها مطبخ خاص بإعداد الطعام وآخر تحضر فيه الحلوى، والثالث مخصص لإعداد القهوة والشاي²⁸، وكلها موجودة بالجهة الجنوبية للقصر بالطابق الأول، كان يشرف عليها رئيس الطهارة وهو المكلف بتسيير شؤون القصر حيث كان مقربا من الداوي وذلك تحسبا للدسائس²⁹، يساعده نائب وطهارة مكلفون بتحضير الطعام وإعداد القهوة والشاي والحلويات..

الحمام : (لوحة 5)

يعتبر حمام الداوي مثالا للحمامات الجزائرية خلال العهد العثماني. يقع في الطابق الأول، لازالت أرضيته مبلطة بقطع من الرخام. يضم الحمام عدة قاعات وهي القاعة الباردة أو قاعة الإستراحة، قاعتان دافئتان و القاعتان الحارّتان، بالإضافة إلى الممران الداخليان، الفرناق ومرحاضان³⁰.



لوحة 5: الحمام في الطابق الأول من القصر



لوحة 4 : غرف الداوي (الطابق الثالث)

لاحظنا من خلال العمل الميداني في القلعة والمرافق التابعة لها، أن هناك عدة مرافق فقدت الأصلية أو كادت تفقد البعض منها كما هو الشأن بالنسبة لقصر الداوي الذي فقد الكثير من عناصره الزخرفية والفنية باستثناء الواجهات المطلّة على الصحن الذي يتوسط المسكن، والغرف الخاصة بالداوي التي مازالت تحتفظ ببعض البلاطات الخزفية (لوحة 10)، أما بقية أجزاء القصر فقد تعرضت

²⁷ Rozet, M , voyage dans la régence d'Alger, T3, Paris, 1833, p22

²⁸ علي خلاصي، قصبة الجزائر، القلعة وقصر الداوي، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1985 م، ص 227.

²⁹ Missoum, S, Alger à l'époque Ottomane, la médina et la maison traditionnelle, INAS, Alger, 2003,, p 149.

³⁰ علي خلاصي، نفس المرجع، ص 228

لعدة تغييرات، ومهما يكن من أمر فمن الممكن أن هذه التغييرات كانت مؤثرة على طابعها المعماري والزخرفي .

1- أهم التغييرات التي طرأت على قلعة الجزائر ومنشآتها:

إن أهم مراحل بناء القلعة والتغييرات التي طرأت على أقسامها، مرتبطة ارتباطا وثيقا بتاريخ المدينة، ومن أهم التطورات والتغييرات التي طرأت عليها:

- 1592 م أضاف مصطفى باشا عدة أقسام منها مخزن البارود والديوان.
- 1626 م انفجار مخزن البارود.
- 1630 م إعادة بناء دار البارود.
- 1717 م زلزال يضرب المدينة وبعض من أجزاء القلعة.
- 1817 م : انتقل مركز حكم الداوي الى القلعة بقرار من علي خوجة الذي أمر قائد المدفعيين بإتمام تحصينها ، فنقل إليها كل كنوزه و كل ما تحتاجه من عتاد حربي واتخذها مقرا للإمارة بعد مغادرته قصر الجنية ، ليتحصن بداخلها ضد ثورات العساكر العثمانيين، فعرفت القلعة تغييرات عمرانية .
- 1818 م : إنعزل الداوي حسين باشا بالقلعة و شرع في إكمال بنائها حيث شيد الطوابق العليا من قصر الداوي وأضاف جناح الحريم، كما شيد مسجد الداوي و زاد في تحصيناتها و فرض عليها حراسة مشددة ، إذ كان لا يسمح بالدخول إليها إلا لوزرائه و للمقربين منه.
- 1830 م : أصبحت ثكنة لقادة الحملة الفرنسية، كما اتخذت غرف الداوي كمقرا وسكنا للماريشال دبورمون (maréchal de Bourmont)
- 1840 م : حولت بعض أقسامها لتصبح مستشفى عسكري.
- 1844 م: شق طريق في وسطها لربط المدينة ، أدى إلى تشويه بعض أقسامها.
- 1887 م : تم تصنيفها ضمن قائمة التراث التاريخي.
- 1930 م: تم تحويل مسكن الداوي إلى متحف عسكري بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي، واتخذ اسم فرنشي ديسبيرري (Franchet d'Esperey) وبذلك حدث فيه تغييرات كثيرة من أجل تهيئته كمتحف.
- 1962م: استخدمت القلعة كمساكن لبعض العائلات الجزائرية ، نتيجة الهجرة الريفية إلى المدينة بطريقة عشوائية، وبالتالي تدهورت حالتها، وطمست بعض معالمها الأثرية.

• 1974: التفتت الدولة إلى هذا المعلم التاريخي الهام بوضع برنامج دراسي كبير من أجل ترميم القلعة، حيث كلفت بعض مكاتب الدراسات المختصة، أبرزها مكتب الدراسات البولوني (PKZ) ، بإعادة استخراج مخططات القلعة، ووضع دراسة ترميمية لهياكلها حيث انتهت الدراسات في الثمانينيات.

• 1996 – 1999 م : تم ترميم بعض الأجزاء من القلعة كمسجد الجيش.

• 2006: إعادة وضع دراسة ترميمية لهياكل القلعة من طرف نفس مكتب الدراسات البولوني (PKZ) .

مع العلم أن عمليات الترميم لهذا المركب التاريخي لم تنتهي حتى اليوم.

2- أهم التغييرات التي طرأت على قصر الداوي:

نلاحظ نوعين من التغييرات، فالنوع الأول هو تدهور البناية نتيجة لعدة عوامل طبيعية كالزلازل و الأمطار و الرطوبة، وهي تغييرات ظاهرة على العناصر المكونة للمعلم كالشقوق (fissures) و انفصال الطلاء عن الجدران وآثار الرطوبة. أما النوع الثاني، و هي التغييرات الناتجة عن إعادة التهيئة أو بعض الترميمات، و هي بصفة عامة ظاهرة من خلال التقنيات ومواد البناء المستعملة.

من المؤكد أن قصر الداوي بني على مراحل أهمها تلك التي أصبح فيها مقرا لحكم الدايات (1817-1830) م، بعد أن استقر به الداوي علي خوجة لأسباب أمنية وسياسية، فقد تعرض في تلك الفترة إلى عدة تعديلات وإضافات إذ خصص الجناح الغربي منه لخزينة الدولة واجتماعات أعضاء الديوان ، بينما خصصت مباني القصر لمختلف النشاطات اليومية، وزود بمراق ذات الخدمات المشتركة كالمطابخ والحمام والمسجد. أما خلال فترة الإستعمار الفرنسي فقد اتخذت القلعة كمقرا لقادة الحملة الفرنسية، مما أدى إلى إحداث تغييرات عديدة في منشآتها بالإضافة إلى الطريق الذي فتح في وسطها مما أدى إلى تشويه بعض أقسامها. أما مسكن الداوي فقد أقام به الجنرال دوبورمون ومن خلفه، وذلك حتى سنة 1930م حيث تحول إلى متحف عسكري ، بمناسبة الإحتفال بمرور مائة سنة على الإحتلال الفرنسي لبلادنا، وسمي بمتحف فرنشي ديسبري (Franchet d'Esperey) نسبة إلى أحد الجنرالات³¹.

³¹ G.B ; Le Musée Franchet d'Espérez musée historique de l'Armée d'Afrique. Dans Algeria et l'Afrique du nord illustrée, 1954, série N° 38, pp 5-10.

فقد قصر الداوي الكثير من عناصره الزخرفية والفنية، باستثناء الواجهات المطلّة على الصحن الذي يتوسطه والغرف الخاصة بالداوي التي مازالت تحتفظ ببعض المربعات الخزفية، أما بقية أجزاء القصر فقد تعرضت لعدة تغييرات، واللوحه ، تبرز بعض هذه التغييرات، ومهما يكن من أمر فمن الممكن أن هذه التغييرات كانت مؤثرة على طابعه المعماري والزخرفي.³²

ولعل من بين التغييرات و الترميمات التي أجريت على هذا القصر نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- 🔷 في الواجهة الشمالية الغربية حدثت عدة تغييرات عبر فترات زمنية مختلفة، أهمها تغيير النوافذ المسيجة وفتح نوافذ أخرى واسعة ثم غلقها بالآجر، كما يتضح من خلال اللوحة 19، والشكل 14.
- 🔷 تعرية الجدران وتدهور أطر النوافذ والدرابزين وكل العناصر المعمارية المصنوعة من الخشب.
- 🔷 تدهور أفاريز المربعات الخزفية التي تعلو العقود المطلّة على الصحن.

هذا بالإضافة إلى بعض التغييرات في العناصر المعمارية، التي تبرز من خلال الصور القديمة و التقارير ، ومثال ذلك نذكر الظلة التي تزين الرواق الشمالي الشرقي لمسكن الداوي، حسب رسم ليسور وويلد (لوحة 7) بينما لا توجد حاليا ، فهل أزيلت قبل أن يصبح القصر متحفا ؟ أم أن رسم ليسور ووايلد لم يكن دقيقا أو كان لأغراض نجلها. لقد ساهمت الدراسة التي قامت بها مؤسسات الهندسة المعمارية بين سنة 1979م و 1986م خاصة مكتب الدراسات البولوني (PKZ) في بعث مشروع ترميم هذا المركب الأثري إلا أن الأشغال لم تنتهي إلى يومنا هذا.

من خلال دراسة هذا القصر تبين لنا أنه لم يبنى دفعة واحدة بل بني على مراحل مما ترتب عنه تغييرات في شكله العام، و يتضح ذلك من خلال العناصر المعمارية كالعقود والأعمدة التي نجدها مدمجة داخل الجدران (صورة).

تعرض قصر الداوي لكثير من التغييرات والتي طمست معالمه الجمالية بمرور الزمن، وهذا لكونه تعرض إلى مخاطر كبرى جراء الزمن والبشر، ولأن الحفاظ على الإرث التاريخي والثقافي جزء لا

³²-Les archives de l'ex : ANAPSMH

Alain Bouineau ; « Citadelle d'Alger "expertise des travaux de protection provisoire et des travaux de restauration proposés" », 1985 .

- André Ravéreau ; Architecte (UNESCO) ; « Etudes de restauration », 1979.

- Atelier de restauration de la Citadelle d'Alger ; « La citadelle d'Alger ou des problèmes de restauration » ; 1984.

-Christo FLE et Goubens ; « Procès-verbal de la conférence relative à la réfection du pavillon dit "du coup d'Eventail" » .16 septembre 1937.

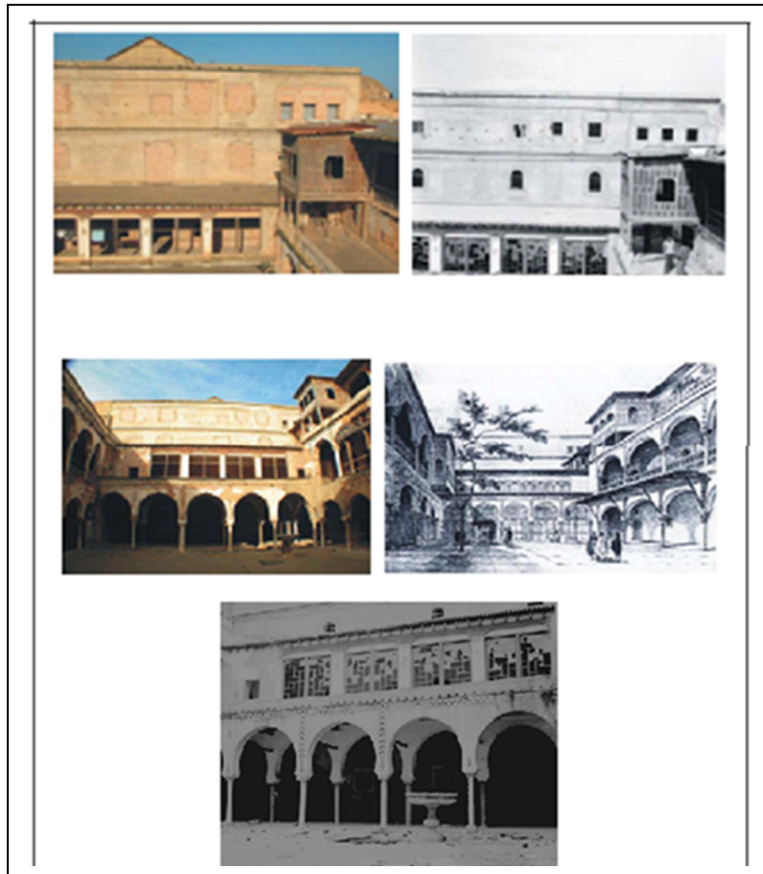
-Commission artistique et historique au musée Franchet d'Esperey ; « Procès-verbal de réunion ", 14 janvier 1945.

-Lilian Meslem et Marc Wattel ; « Rapport sur les travaux de recherches effectués au Palais du Dey du 16 au 19 décembre 1978 », 03 janvier 1979.

يتجزأ من عملية الحفاظ على الهوية الوطنية، لا يسعنا في الأخير إلا أن نوصي بضرورة الالتفات إلى هذا التراث الثمين والتكفل به.



شكل 3 : أهم التغييرات التي طرأت على الواجهة الشمالية الغربية لقصر الداوي



لوحة 6 : بعض التغييرات التي طرأت على صحن قصر الداوي